

نشيد الأناشيد

اسمه نشيد الأناشيد، أو أغنية الأغانيات، يسمونه في الانجليزية ، أي أنه لو اعتبرت جميع الأناشيد كأنها كلام عادي، song of songs تكون هذا السفر هو نشيدها أو أغنتها.. كتبه سليمان الحكيم، شعراً.

هذا السفر هو سفر الحب:

نفهم منه أن الله منذ القدم كان يريد أن تكون العلاقة بيننا وبينه هي علاقة حب. ولعل هذا واضح مما ورد في سفر التثنية "فَتُحِبُّ الرَّبَّ إِلَهَكَ مِنْ كُلِّ قَلْبِكَ وَمِنْ كُلِّ نَفْسِكَ وَمِنْ كُلِّ فُؤَدَكَ" (تث 5:6). وقد قال السيد المسيح أن وصية الحب هذه، يتعلق بها الناموس كله والأنبياء.

سفر النشيد يتحدث عن المحبة الكائنة بين الله والنفس البشرية، أو بين الله والكنيسة، في صورة الحب الكائن بين عريس وعروسة.

سفر النشيد يتميز بكثير من الآيات الذهبية الشهيرة التي يستخدمها الوعاظ باستمرار مثل "اجذبني وراءك فنجري"، "أنا سوداء وجميلة"، خذوا لنا التعالب، الثعالب الصغار المفسدة للكروم، "أنا نائمة وقلبي مستيقظ"، "حبيبي لي، وأنا له، الراعي بين السوسن"، "حلقة حلاوة، وكله مشتهيات"، "المحبة قوية كالموت"، "مِيَاهٌ كَثِيرَةٌ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تُطْفِئَ الْمَحَبَّةَ، ..." ...

ولكي نفهم سفر الرؤيا، لابد أن نفهمه بطريقة رمزية، وليس بتفسير حرفـي..

أن التفسير الحرفي لسفر الرؤيا تفسير منفر، ولا يتفق مع روح الوحي، ولا مع مدلول الألفاظ. وهذا السفر لا يصلح إلا للمتعمدين في الروح، الذين لهم عمق في التأمل ولا يأخذون الألفاظ بفهم سطحي. إنه ليس للمبتدئين، بل للناضجين، وقدি�ماً لم يكن أحد يقرؤه إلا بأذن من أبيه الروحي.

هناك آيات في السفر لا يمكن أن تؤخذ بمعناها الحرفي. مثل ذلك قوله "مَنْ هِيَ الْمُشْرِفَةُ مُثْلَ الصَّابِحِ، جَمِيلَةُ كَالْقَمَرِ، طَاهِرَةٌ كَالشَّمْسِ، مُرْهِبَةٌ كَجَيْشٍ بِالْوَيْدِ؟ ..." ...

إن عبارة (مرهبة كجيش بالويدة)، لا يمكن أن تقبلها حبيبة على نفسها، فكيف تقبل المرأة أن توصف بأنها تثير الرهبة أو الخوف، بينما النساء من المفروض فيهن أن يتميزن بالرقى؟! ولكن الكنيسة يمكن أن تكون مرهبة بالنسبة إلى الشيطان والعالم، مخيفه لقوى الشر مثل جيش بالويدة "أي من عدة لواءات"... كانت الكنيسة مرهبة للفلسفة الوثنية، ومرهبة لكهنة وعبدة الأصنام، ومرهبة للانحراف والفساد... لأنها كانت طاهرة كالشمس. **وعبارة جميلة كالقمر، لا يمكن أن تمشي حرفيًا مع عبارة(أنا سوداء وجميلة يا بنات أورشليم).** فكيف تكون سوداء وفي نفس الوقت جميلة كالقمر؟!

ولكن السوداء هي كنيسة الأمم، التي لم تكن تتنمي إلى الآباء والأنبياء، عاشت بلا شريعة، بلانبي، بلا وعد، بلا صلة بالله، غريبة عن رعيتها... ولكنها صارت جميلة، وجميلة كالقمر، بالإيمان الجديد، ببر المسيح، وبدمه الذي محا خطايها. فهي تخاطب كنيسة العهد القديم، وتقول لأعضائها "أنا سوداء وجميلة يا بنات أورشليم..." ...

وعبارة جميلة كالقمر، تحمل معنـي روحـيا وعلمـيا في منتهـي العـمق والـجمال. فالـمعـروف عن القـمر أـنه كـوكـب مـظلـم يـستـمد نورـه مـن الشـمـس.

فـهذه السـودـاء التـي كـانت بلا إـيمـان، وليـس لـها جـمال فـي ذاتـها: عـندـما أـلـقـي اللـه عـلـيـها نـورـه، صـارـت جـميـلة كالـقـمر، كالـقـمر الـذـي لـيـس لـه جـمال فـي ذاتـهـا، وإنـما يـسـتمـد نـورـه مـن الشـمـس... فالـتشـبـيه وـاضـح، فـي السـوـدـاء وـفـي الـجـمـالـ. فـي السـوـدـاء الـذـي تـتـمـيز بـه ذاتـنا الـخـاطـئة، وـالـجـمـالـ الـذـي يـهـبـه لـنـا الرـبـ فـي فـدائـه الـعـجـيب وـفـي الطـبـيـعـة الـجـديـدـة الـذـي يـهـبـهـا لـنـا بـالـمـعـمـودـيـة... ...

وعـبـارـة (عينـاك حـمامـتان) تـحمل نـفـس المعـنى الروـحـي الجـميـل... العـيـن تـمـثـل البـصـيرـة، وـالـحـمـام يـرمـز أـحـيـاً إـلـى الرـوـح الـقـدـس كـما يـظـهـر فـي قـصـة العمـاد...، وأـحـيـاً يـمـثـل المـحرـقة أو الذـيـحة الـتـي يـقـدـمـها الفـقـيرـ الـمـسـكـينـ إـلـى اللـهـ.

فـعـنـدـما تـكـونـ العـيـنـ بـالـمـعـنى الـأـولـ، فـمـعـنـي ذـلـكـ أـنـ الإـنـسـانـ يـتـمـيزـ بـنـظـرةـ روـحـيـةـ، بـفـهـمـ روـحـيـ، كـأنـ عـيـنـهـ هـيـ الـحـمـامـةـ الـتـي تـرـمـزـ لـلـرـوـحـ الـقـدـيسـ. فـكـلـ بـصـيرـتـهـ روـحـيـةـ.. وـكـلـ نـظـرـاتـهـ لـمـخـتـلـفـ الـأـمـورـ نـظـراتـ مـقـدـسـةـ، بـالـرـوـحـ...

وـعـنـدـما تـكـونـ العـيـنـ بـمـعـنـي ذـيـحةـ الـفـقـيرـ الـمـسـكـينـ، إـنـما تـعـنـي اـنـسـحـاقـ الـنـفـسـ بـمـسـكـهـ الـرـوـحـ، وـتـقـدـيمـ ذاتـهاـ ذـيـحةـ لـلـرـبـ كـماـ أـمـرـ الكتابـ(روـ12:1)، فـي انـكـسـارـ قـلـبـ، مـطـيـعـةـ حـتـىـ الـمـوـتـ.

وـعـنـدـما تـكـونـ العـيـنـانـ حـمـامـتـانـ، إـنـما تـمـثـلـانـ الـمـعـنـيـنـ مـعـاً...

وـبـنـفـسـ الـمـعـنى الـأـخـيـرـ يـمـكـنـ أـنـ نـفـهـمـ قولـ الـرـبـ "حـولـ عـيـنـيكـ عـنـيـ فـإـنـهـماـ قدـ غـلـبـتـانـيـ"...

إن للإنسان الذي للرب عينين مملوءتين بمنسحقتين ملؤمه إنكسار القلب، فهذا هو الذي يجاهد مع الله ويغلب، مثل يعقوب المنكسر الصعيف الذي جاهد مع رب قائلًا "لا تترك حتى تباركني" ... وغلب، وأخذ البركة... لأن الذبيحة عند الله روح منكسر، القلب المنسحق والمتواضع لا يرذله الله" (مر 50).

إذن فالنفس الباكية، التي تطلب الله بدموع، هي التي قال لها رب في النشيد: "حولي عينيك عنِّي، فانهما قد غلبتانِي" ...
بهذا نفهم سفر النشيد بطريقة روحية، وبعمق، وبما فيه من رموز، وليس بفهم مراهق...

وتشبيه العين بالحمامات يحمل معنى روحياً آخر. فالحمامات رمز للبساطة والنقاوة. ولذلك يقول رب "كونوا بسطاء كالحمامات". فالعين التي تشبه بالحمامات، إنما تشبه أيضاً بالبساطة. وقد قال الكتاب "إن كانت عينك بسيطة، فجسدك كله يكون نيراً..." فالعين التي تشبه بالحمامات، ترمز للنظرة البسيطة إلى كافة الأمور... إلى الحياة البريئة الطاهرة البعيدة عن التعقيد... كان آدم في بدء حياته بسيطاً لا يعرف سوى الخير، قبل أن تتعقد حياته وتصبح خليطاً مركباً من خير وشر، بعد أن أكل من شجرة الخير والشر...

وهكذا في سفر النشيد نجد العروس تقول عن العريس الذي هو المسيح: "عيناه كالحمام مغارى المياه". أي أن بصيرته بالروح القدس، لأن الذي يقبل الروح القدس "تفيض من بطنه أنهار مياه حيه، تروي الناس" إذ أن الروح القدس ثابت فيه أقnonomia. ولذلك حسناً قيل "على مغارى المياه"، قال الكتاب. وبهذا شبه الرجل البار في المزمور بأنه كالشجرة المغروسة على مغارى المياه...

سفر النشيد ليس غزلاً، وإنما هو تعبير عن المحبة المتبادلة بين الله والنفس البشرية، كما أنه شرح لصفات الله وصفات النفس المحبة له.

الله لا يريد أن تكون علاقتنا به علاقة رسميات، أو علاقة خوف ورعب من لاهوته وجلاله، إنما يريد أن تكون أحباء له، لأنه "محب البشر" وهو الذي قال: "لا أعود اسميكم عبيداً بل أحباء".

كل ما في الله يدعونا إلى حبه، كل صفاتـه جميلة، كل حنوه وعطـفـه ولطفـه، من أجل هذا قيل له في سفر النشيد.
(لذلك أحـبـتـك العـذـارـى..)

والمقصود بالعذاري النقوس التي لم تهب ذاتها لآخر، المتفرغة الله وحده المكتفية بمحبته، هذه هي النفوس العذاري المخصصة له. مثلما قال شاعر عن أمانـيه وأمالـه.

أمانـعـذـارـى لم يـجلـنـ بـخـاطـرـ... وبـعـضـ أـمـانـيـ النـاسـ شـمـطـاءـ ثـيـبـ تحـبـكـ النـفـوسـ العـذـارـاءـ التـيـ لمـ تـهـبـ ذاتـهـ لـلـعـالـمـ ، ولا لـشـهـوـتـهـ ، وـلـمـ يـمـتـلـكـ قـلـبـهـ إـنـسـانـ ماـ.. مـثـلـمـاـ قـالـ بـولـسـ الرـسـولـ عنـ كـراـرـتـهـ "خـطـبـتـكـمـ لـأـقـدـمـ عـذـارـاءـ عـفـيـفـةـ لـلـمـسـيـحـ".

ومن أجل هذا أيضاً شبهـ الـربـ النـفـوسـ التـيـ تـطـلـبـهـ وـتـسـعـيـ إـلـىـ مـلـكـوـتـهـ السـمـائـيـ "بـخـمـسـ عـذـارـىـ حـكـيـمـاتـ"ـ،ـ والمـقـصـودـ بـهـؤـلـاءـ العـذـارـىـ كـلـ المؤـمـنـينـ الصـالـحـينـ متـزـوجـينـ أوـ بـتـولـيـنـ ماـ دـامـواـ لـمـ يـهـبـواـ نـفـوسـهـمـ لـلـعـالـمـ.

هـذـاـ النـفـوسـ العـذـارـاءـ الـخـطـوـبـةـ لـلـمـسـيـحـ،ـ قـالـ عـنـهـ الـرـبـ فـيـ سـفـرـ النـشـيدـ "أـحـيـ الـعـرـوـسـ جـنـةـ مـغـلـقـةـ،ـ عـيـنـ مـقـفـلـةـ،ـ يـنـبـوـعـ مـخـتـومـ".ـ

هـيـ جـنـةـ فـيـهـاـ كـلـ ثـمـارـ الـرـوـحـ،ـ فـيـهـاـ كـلـ شـحـرـةـ تعـطـيـ ثـمـراـ جـيـداـ،ـ وـتـقـدـمـ ثـلـاثـيـنـ وـسـتـيـنـ وـمـائـةـ فـيـ عـمـلـ الـرـبـ.ـ وـلـكـنـهاـ جـنـةـ مـغـلـقـةـ،ـ لـمـ تـفـتـحـ أـبـوـابـهاـ لـكـلـ طـارـقـ،ـ وـلـيـسـتـ سـائـبـةـ بلاـ سـوـرـ...ـ وـلـذـكـ قـالـ لـهـاـ الـمـرـنـمـ فـيـ الـمـزـمـورـ "سـبـحـيـ الـرـبـ يـاـ أـورـشـلـيمـ..ـ لـأـنـ قـويـ مـغـالـيقـ أـبـوـابـكـ،ـ وـبـارـكـ بـنـيـكـ فـيـكـ".ـ

أـنـهـ جـنـةـ مـغـلـقـةـ لـمـ يـدـخـلـهـ حـيـوانـ مـفـتـرـسـ،ـ لـمـ يـدـسـهـ بـأـقـدـامـهـ،ـ لـمـ يـطـأـ زـهـورـهـ الـجـمـيـلـةـ،ـ وـلـمـ يـعـبـثـ بـأـثـمـارـهـ الـحـلـوـةـ.ـ إـنـهـ جـنـةـ،ـ فـرـدـوـسـ منـ الفـضـائـلـ،ـ وـلـكـنـهاـ مـغـلـقـةـ،ـ مـحـصـنـةـ،ـ وـالـلـهـ فـيـ دـاخـلـهـ،ـ وـلـمـ تـفـتـحـ أـبـوـابـهاـ لـعـدـوـ خـارـجيـ.

وـهـيـ عـيـنـ مـاءـ،ـ وـيـنـبـوـعـ،ـ فـيـهـ المـاءـ الدـاخـلـيـ،ـ رـمـزـ الـحـيـاةـ،ـ وـرـمـزـ الـرـوـحـ.ـ وـكـمـ قـالـ الـمـزـمـورـ "سـوـاقـيـ الـلـهـ مـمـلـوـعـةـ مـاءـ".ـ وـلـكـنـهاـ يـنـبـوـعـ مـخـتـومـ،ـ لـيـسـ مـفـتوـحاـ لـلـتـلـوـثـ،ـ وـلـاـ لـلـحـشـرـاتـ،ـ وـلـكـنـهـ مـخـتـومـ.ـ يـفـتـحـهـ اللـهـ مـتـىـ يـشـاءـ،ـ وـيـغـلـقـهـ مـتـىـ يـشـاءـ،ـ فـيـ حـكـمـةـ وـفـيـ حـبـ..ـ هـوـ يـفـتـحـ وـلـاـ أـحـدـ يـغـلـقـ،ـ وـهـوـ يـغـلـقـ وـلـاـ أـحـدـ يـفـتـحـ.

مثال ذلك فـمـ الإـنـسـانـ،ـ قـدـ تـفـتـحـهـ فـتـرـوـيـ النـاسـ بـعـلـمـكـ وـتـعـزـيـتـكـ،ـ وـقـدـ تـفـتـحـهـ لـلـتـرـتـيلـ وـالـتـسـبـيـحـ،ـ كـمـ تـقـولـ فـيـ الـمـزـمـورـ "افـتحـ يـارـبـ شـفـتـيـ فـيـخـبـرـ فـمـيـ بـتـسـبـيـحتـكـ"ـ...ـ وـلـكـنـكـ فـيـ غـيـرـ ذـكـ تـحـترـسـ مـنـ أـخـطـاءـ الـلـسـانـ فـتـغـلـقـ هـذـاـ الـفـمـ،ـ كـمـ قـالـ الـمـرـنـمـ فـيـ الـمـزـمـورـ "ضـعـ يـارـبـ حـافـظـاـ لـفـمـيـ،ـ بـاـ حـصـيـنـاـ لـشـفـتـيـ"ـ..ـ حـقـاـ إـنـهـ يـنـبـوـعـ،ـ وـلـكـنـهـ يـنـبـوـعـ مـخـتـومـ.ـ يـعـرـفـ مـتـىـ يـصـمـتـ،ـ كـمـ يـعـرـفـ مـتـىـ يـتـكـلمـ.

يـاـ أـخـيـ،ـ عـنـدـمـاـ تـنـتـظـرـ إـلـىـ نـفـسـكـ،ـ فـتـجـدـ أـنـ كـلـ كـلـمـةـ تـسـمـعـهـ،ـ تـدـخـلـ إـلـىـ فـكـرـكـ وـإـلـىـ قـلـبـكـ،ـ فـتـشـغـلـكـ،ـ وـتـنـفـعـلـ بـهـ أـحـاسـيسـكـ وـمـشـاعـرـكـ،ـ وـقـدـ تـطـيـشـ فـيـهـاـ أـفـكـارـكـ حتـىـ فـيـ صـلـاتـكـ..ـ هـكـذاـ لـكـلـ نـظـرـةـ تـنـتـظـرـهـ،ـ وـكـلـ لـمـسـةـ تـلـمـسـهـاـ...ـ إـذـ فـاعـرـفـ أـنـكـ لـسـتـ جـنـةـ...ـ أـنـكـ مـفـتوـحـ لـكـلـ الـمـشـاعـرـ وـكـلـ الـتـأـثـيرـاتـ الـخـارـجـيـةـ...ـ كـلـهـاـ تـدـخـلـ إـلـيـكـ،ـ بـلـ رـقـبـ...ـ وـحـيـئـذـ لـاـ يـسـتـطـعـ الـرـبـ أـنـ يـقـولـ

من الجائز أيضًا أن عبارة "جنة مغلقة، وعين مقفلة، وينبوع مختوم، تعالى عن بتولية النفس التي وهبت ذاتها للمسيح، أنها عذراء مختومة للرب.

مقال لقديسة البابا شنوده الثالث - مجلة الكرازة - السنة الخامسة - العدد الثالث - 19 أكتوبر 1974م